أين المفر؟

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد:

فأين المفر من الموت وسكرته، والقبر وضمته، والصراط وحدَّته، أين المفر من أيام ولحظات ولَّت وأدبرت، انتهت لذَّتها وبقيت حسرتها وتبعتها.

أين المفر من ذنوب علمناها، وحقوق نسيناها وفرائض أضعناها؟!، أين المفر فالموت في رقابكم، والنار بين أيديكم، فتوقعوا قضاء الله في كل يوم وليلة، لقد فضح الموت الدنيا، فلم يترك لذي عقلٍ فرحًا، فلا تغرّنكم الحياة الدنيا، فإنها دار بالبلاء محفوفة، وبالفناء معروفة، وبالغدر موصوفة، وكل ما فيها إلى زوال، وهي بين أهلها دول وسجال، لا تدوم أهوالها، ولن يسلم من شرها نُزَّالها، بينما أهلها منها في رخاء وسرور، إذا هم منها في بلاء وغرور،

أحوال مختلفة، وأنتم فيها على سبيل من قد مضى، كانوا أطول منكم أعماراً، وأشد منكم بطشًا، وأعمر ديارًا وأبعد آثاراً، فأصبحت أموالهم هامدة، وأجسادهم بالية، وديارهم خالية، وآثارهم عافية، فاستُبدلوا بالقصور المُشيّدة الصخور والأحجار في القبور، فأصبحوا بعد الحياة أمواتًا، وبعد نضارة العيش رفاتًا، فُجع بهم الأحباب، وسكنوا التراب، وارتحلوا فليس لهم إياب، وهيهات هيهات ﴿ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) ﴾ [المؤمنون: ١٠٠].

وكأن قد صرتم إلى ما صاروا إليه من البلى والوحدة في دار المثوى، وارتهنتم في ذلك المضجع، وضمكم ذلك المستودع، فكيف بكم لو قد تناهت الأمور، وبُعثرت القبور، وحُصّل ما في الصدور، ووقفتم للتحصيل، بين يدي الملك الجليل، فطارت القلوب؛ لإشفاقها من سالف الذنوب، وهُتكت عنكم الحُجب والأستار، وظهرت منكم العيوب والأسرار.

هنالك ﴿ تُجْزىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [غافر: ١٧]، ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) ﴾ [النجم: ٣١]، ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩) ﴾ [الكهف: ٤٩].

أين المفر؟، فإنَّ الله لم يخلقكم عبثًا، ولم يدع شيئًا من أمركم سدى، وإن لكم معادًا، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله، وحُرم الجنة التي عرضها السموات والأرض، واشترى قليلاً بكثير، وفانيًا بباقٍ، وخوفًا بأمن، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين؟!، وسيخلفها من بعدكم الباقون، كذلك حتَّى تُردوا إلى خير الوارثين، في كل يوم وليلة تُشيّعون غاديًا، ورائحًا إلى الله عزَّ وجل، قد قضى نحبه، وانقضى أجله، ثم تضعونه في صدع الأرض، غير ممهد ولا موسّد، قد خلع الأسباب، وفارق الأحباب، وسكن التراب، وواجه الحساب، مرتهنًا بعمله، وفقيرًا إلى ما قدم، غنيًا عمَّا ترك.

أين المفر؟، أراحل أنت أم مُقيم؟، وإذا كنت مرتحلاً، فإلى أين؟، أإلى جنَّة أم إلى نار؟، فالحياة بغير الله سراب، يحسبه الظمآن ماءًا، حتَّى إذا جاءه لم يجده شيئًا ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريع الحساب.

لا تدري بماذا يُنادى عليك غدًا، أيُقال: يا عبد الله، سعدت سعادة لا شقاء بعدها أبدًا، أم يُقال: شقيت شقاءًا لا سعادة بعده أبدًا؟!، فأنصف نفسك، فرحالك تُشد، وأنفاسك تُعد، والعارية تُرد، والتراب من بعد ذلك ينتظر الخد، وعلى أثر من سلف يمشي من خلف، وما عُقبى الباقي غير اللحاق بالماضي، وما ثمَّ إلاَّ أجل مكتوب، وأمل مكذوب ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** (١٨٥) ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ولو دامت لغيرك ما انتقلت إليك، وأنت وهي سترتحلان إلى الله ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ** (٤٠) ﴾ [مريم: ٤٠].

فلما الاغترار، وهل الدنيا إلاَّ مركب ركبته، أو ثوب لبسته، أو امرأة أصبتها؟! إنَّ المؤمنين لم يطمئنوا إلى الدنيا لبقائهم فيها، ولم يأمنوا قدوم الآخرة عليهم، ولم يصمهم عن ذكر الله ما سمعوا بآذانهم من الفتنة، ولم يُعمهم عن نور الله ما رأوا بأعينهم من الزينة، ففازوا بثواب الأبرار، إنَّ أهل التقوى أيسر أهل الدنيا مؤونة، وأكثرهم لك معونة، إن نسيت ذكّروك، وإن ذكرت أعانوك، قوَّالين بحق الله، قوَّامين بأمر الله، فأنزل الدنيا كمنزل نزلت به وارتحلت منه، أو كمال أصبته في منامك، فاستيقظت وليس معك منه شيء، واحفظ الله تعالى ما استرعاك من دينه وحكمته، وقل لنفسك: أنا ذلك العبد المذنب المسيئ، أمرتني فلم أأتمر، وزجرتني فلم أنزجر، هذا عبدك بين يديك ولا أعتذر.

أين المفر؟، والعبد مسئول عن لفظه، ويُحصى عليه ذلك كله، أحصاه الله ونسوه، ويوضع ذلك في كتاب لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصاها، ووجدوا ما عملوا حاضرًا، ولا يظلم ربك أحدًا، فإذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك، وإذا هممت فاذكر علمه بك، وإذا تفكَّرت فاذكر

اطلاعه عليك، فإنه يقول: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً (٣٦)﴾ [الإسراء: ٣٦].

تُطوى الصحف، وتُرفع الأعمال، وسهام الليل لا تُخطئ، ودعوة المظلوم تُرفع دون الغمام، ويقول الله: «**وعزَّتي وجلالي لأجيبنك ولو بعد حين**» وضمَّة القبر تنسي ليلة العرس، وعند الله تجتمع الخصوم، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾ [الأنبياء: ٤٧].

أين المفر من يوم عظيم، قال عنه سبحانه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ(٣٠)﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧)﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٧]، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ

ليتني لم أتخذ فلانًا خليلا (٢٨) لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا (٢٩) ﴾ [الفرقان : ٢٧ – ٢٩]، ﴿ يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد (٢) ﴾ [الحج : ٢].

وتأتي نفس تقول : ﴿ يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله ﴾ [الزمر : ٥٦] ، وتقول الأخرى : ﴿ هل إلى مرد من سبيل (٤٤) ﴾ [الشورى : ٤٤]، وثالثة تقول : يا ليتنا ﴿ نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ [الأعراف : ٥٣].

فاعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله، وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كتب له، واحذر ما كان يحذره الأفاضل ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (٤٧) ﴾ [الزمر : ٤٧] ، واعلم أنك موقوف بك بين يدي الله، ومسئول عن شبابك فيما أفنيته، وعمرك فيما أمضيته، ومالك من أين أخذته وفيما أنفقته، ومن نوقش الحساب عُذب، فأعد للسؤال جوابًا، وإن كنت ممن خرَّب آخرته وعمَّر دنياه، فراجع نفسك، وأحسن ما بينك وبين ربك

يُحسن لك ما بينك وبين الخلق، ولمصانعة وجه واحد أيسر من مصانعة الوجوه كلها.

أين المفر؟، أنت تُسئل في قبرك عن ربك ودينك، وماذا تقول في الرجل الذي بُعث فيك، فإن كنت مؤمنًا أجبت بلسان فصيح: ربي الله، وديني الإسلام، والرجل الذي بُعث فينا هو محمد ﷺ، آمنت به وصدَّقت، ما تحتاج لملقّن ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)**﴾ [فصلت: ٣٠] وإن كان العبد فاجرًا، قال: هاه هاه، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلت، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ويُضرب بمرزبة، لو سمعها الثقلان لصُعقوا.

فحياتك ولحظاتك وأنفاسك؛ يجب أن تكون إجابة على هذه الأسئلة الثلاثة، واصدق فالصدق منجاة، قبورٌ خرّقت الأكفان ومزَّقت الأبدان، مصَّت الدم وأكلت اللحم، تُرى ما صنعت بهم الديدان، محت الوجوه، وكسرت الفقار، وأبانت الأشلاء، ومزَّقت الأعضاء، تُرى أليس الليل والنهار عليهم سواء؟، أليس هم في مدلهمَّة ظلماء؟، كم

من ناعم وناعمة أصبحت وجوههم بالية وأجسادهم عن أعناقهم نائية، قد سالت الحدق على الوجنات، وامتلأت الأفواه دمًا وصديدًا، ثم لم يلبسوا والله إلاَّ يسيرًا حتَّى عادت العظام رميمًا.

وتخيّل نفسك أثناء المرور على الصراط، وهو دحض مزلة، ولابد لك من نور، ومن الخلائق من يمر عليه بسرعة البرق أو الريح، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبو حبوًا، ومنهم من تخطفه كلاليب جهنَّم فتهوي به في قعرها، ويُعطى المنافقون نورًا على قدر عملهم الظاهر، فإذا توسطوا الجسر أُطفئ ما بأيديهم من مصابيح، فيقولون لركب الإيمان: انظرونا نقتبس من نوركم، فيقولون لهم: ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورًا، فيُضرب بينهم وبين المؤمنين بسور له باب، باطنه الذي يلي المؤمنين فيه الرحمة، وظاهره الذي يلي المنافقين فيه العذاب، فتهوي بهم كلاليب جهنم في قعرها.

فتخوّف على نفسك النفاق، واعلم أنك من الورود على يقين، ومن النجاة في شك ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ

رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢) ﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «لو أعلم أنَّ الله تقبَّل منِّي سجدة لكان فرحي بالموت أشد من فرح الأهل بقدوم الغائب»، وذلك لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(٢٧) ﴾ [المائدة: ٢٧].

أين المفر؟، أنفرُّ من مهاد ووهاد إلى جبال وقلاع وحصون؟!، أنفرّ من بلد إلى بلد؟! نحن نفر من قدر الله إلى قدر الله، والفرار الحق يجب أن يكون إلى الله ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) ﴾ [الذاريات: ٥٠].

لقد خوطب الجيش يومًا وقيل له: البحر أمامكم، والعدو وراءكم، فكان لابد من جهاد كبير، وطلب لإحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة، فإذا قيل لك أين المفر، فقل: وعجلت إليك رب لترضى، فلست تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره، ولا من ملكه إلى ملك غيره، فخف من الله على قدر قربه منك، على قدر قدرته عليك .

obeikandl.com

إذا خلوت الدهر يومًا فلا تقل
خلوت ولكن قل عليَّ رقيب
ولا تحسبنَّ الله يغفل ساعة
ولا أنَّ ما يخفى عليه يغيب

أين المفر؟، آية وردت في سورة القيامة، وسبقها قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ (٨) وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ (٩) يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠)** ﴾ [القيامة: ٧ – ١٠]، وتلاها قوله تعالى: ﴿ **كَلاَّ لا وَزَرَ (١١) إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢) يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ (١٣) بَلِ الإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥)** ﴾ [القيامة: ١١ – ١٥].

فما الذي عملته منذ جرى عليك قلم التكليف ﴿ **أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧)** ﴾ [فاطر: ٣٧]، جاءك النذير بالمشيب أو بلوغك سن الأربعين، وأعذر الله إلى رجل بلغ به ستين سنة، فتذكر أنَّه لا ملجأ ولا منجا من الله إلاَّ إليه، ولا عاصم من أمر الله إلاَّ من رحم، وما ربك بظلام للعبيد.

وتذكر أيضًا تطاير الصحف، فمن الناس من يأخذ كتابه بيمينه، ومنهم من يتناوله بشماله ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢)﴾ [الحاقة: ١٩ - ٣٢].

الخاتمة مطوية والحال مريب، وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: «ثلاث أضحكتني حتَّى أبكتني: طالب دنيا والموت يطلبه، وضاحك ملء فيه ولا يدري أأرضى ربه أم أسخطه، وغافل ليس بمغفول عنه».

توهم نفسك ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦)﴾ [المطففين: ٦]، وقد علاك العرق، وأطبق عليك الغم، وضاقت نفسك في صدرك من شدة الفزع والرعب، والناس

معك منتظرون لفصل القضاء ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾ [الشورى: ٧]، ودعوى الخلائق يومئذ ربّ سلّم سلّم، وينشغل أولو العزم من الرسل بأنفسهم، كلهم يقول: نفسي نفسي ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١] ولا يجيبهم يومئذ إلاَّ النَّبيّ ﷺ، لتعجيل عرضهم، والنظر في أمورهم.

فبادروا بالأنفاس، فلو حُبست انقطعت عنكم أعمالكم، وأنتم بحاجة لحسنة تُثقل الميزان، بحاجة لتسبيحة أو تحميدة، أو استغفارة، ولعلَّ الكلمة التي تتناول بها كتابك بيمينك غداً لم تقلها بعد، والرويَّة في كل أمر خير إلاَّ ما كان من أمر الآخرة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

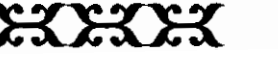

إن ربك لبالمرصاد

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

إنَّ من أصبح بلذَّاته مغتبطًا، أين من كان أمره فرطًا؟!، ندم إذا ارتكب غلطًا، أين من سلك سبيلاً شططًا؟!، نزل لحداً وجاءه الملكان فأفزعا وأقرطا، وافتضح بقبيح، وانكشف الغطاء، قل للمشغولين بالفساد، الواقفين مع العناد: إلى متى ظلم العباد؟!، كم مُستلب ما نال المراد ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** (١٤) ﴾ [الفجر: ١٤] أما عاد العذاب على عاد؟، أين من ادَّعى الربوبية أو كاد؟ كاده الجبار فيمن كاد ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ .

بينما هم في ظُلم المظالم سُئل على أقبح فعله الظالم، فبات يقرع سِن نادم، ولكن وقت الكساد، فلا تغتر بمالك وقصرك، ولا تعجب بنهيك وأمرك، يا طائر الهوى ستُؤخذ

من وكرك، وما تُعجز الصياد ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ .

من لك إذا سُئلت عن خلقك وجُوزيت بأقبح عملك؟ كم أرشدك إلى رشادك وأنت على فسادك؟ كم أدعوك إلى إسعادك وأنت مُقيم على ضلالك، ضُرِب بوق رحيلك وما اهتممت بزادك، أنا في وادٍ وأنت في واد، لقد بالغت لك في النصائح وقمت منذراً عُقبى القبائح، والطريق واضح، والعَلَم لائح ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾

[الرعد : ٣٣].

لقد أقسم سبحانه قسماً عَلم مضمونه أولو الأحلام والنُّهى ، فقال : ﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ (٥) ﴾

[الفجر: ١– ٥] .

﴿ لِّذِي حِجْرٍ ﴾ أي لذي لُب وعقل، وقيل جواب القسم ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾ أو لتعذبن يا كفار مكة، وبين القسم وجوابه تذكير ببعض الهلكى من الأفراد والجماعات، يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧)

الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر: ٦ - ١٤].

والخطاب وإن توجه للنبي ﷺ إلاَّ أنه يعمّ الجميع، وكان أمر عاد وثمود عندهم مشهوراً، إذْ كانوا في بلاد العرب، وحِجْر ثمود موجود اليوم، يمر الناس عليه، وهي ديار صالح، لما دخلها البعض، قال النَّبيُّ ﷺ: «**لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلاَّ أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم؛ أن يُصيبكم ما أصابهم**».

وأما قوم عاد، فآثارهم قيل في الربع الخالي، وأمر فرعون كانوا يسمعونه من جيرانهم من أهل الكتاب، واستفاضت به الأخبار، وبلاد فرعون متصلة بأرض العرب.

وقد كان قوم عاد من العماليق، وهم الذين عناهم الحق سبحانه بقوله: ﴿ **فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ**

مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) ﴾ [فصلت : ١٥] وكانوا كفاراً جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله، واتبعوا أمر كل جبّار عنيد، وقال لهم نبيّهم هود: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٣١) وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ (١٣٣) وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) ﴾ [الشعراء: ١٢٨– ١٣٤].

فلم يرفعوا بذلك رأسًا ﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (٥٣) إِنْ نَقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ(٥٥) ﴾ [هود: ٥٣ – ٥٥].

وقد أهلكهم سبحانه بالريح العقيم على الرغم من ضخامة أجسامهم، وكان دمارهم فيما استبشروا به، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي

﴿ الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) ﴾ [الأحقاف : ٢٤، ٢٥]، وقال : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ(١٦) ﴾ [فصلت : ١٦]، وقال : ﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾[الذاريات : ٤١، ٤٢].

أما ثمود فهم من نحت الجبال والصخور والرخام، كما قال المفسرون، فبنوا من المدائن ألفًا وسبعمائة مدينة، كلها من الحجارة، ومن الدور والمنازل ألفي ألف وسبعمائة ألف كلها من الحجارة، وقد قال تعالى : ﴿ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) ﴾ [الحجر : ٨٢] ، وكانوا لقوتهم يُخرجون الصخور وينقبون الجبال ويجعلونها بيوتًا لأنفسهم، كانوا كفارًا وكانوا مفسدين ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) ﴾

[النمل : ٤٨].

ولما سألوا نبيهم صالح آية على نبوته، خرجت لهم ناقة

عظيمة من الصخر، فقال: لها شرب ولكم شرب يوم معلوم، وحذَّرهم من أن يمسوها بسوء، فخرج قُدار بن سالف - بموافقة قومه - فعقرها وهو أشقى القوم، يقول سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (١٥)﴾ [الشمس: ١٤، ١٥].

وقد توعدهم نبيّ الله صالح عليه السلام بحلول العذاب بعد ثلاثة أيام من قتل الناقة ﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥)﴾ [هود: ٦٥]، وكان هلاكهم بالصاعقة والصيحة والرجفة، ونجا صالح عليه السلام والذين آمنوا معه من هذا العذاب ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (٧٩)﴾ [الأعراف: ٧٩].

لقد هلكت ثمود كما دُمرت عاد ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١)﴾ [النجم: ٥٠، ٥١] أما فرعون ذي الأوتاد، فقد ادَّعى الربوبية والألوهية مع الله، وقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ (٢٤)﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال:

﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾ [الزخرف : ٥١] أفسد في الأرض وكان سفيهًا، ورغم ذلك قال لقومه : ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ(٢٩) ﴾ [غافر : ٢٩] لقد ضُرب به المثل، والأوتاد هي الجنود والعساكر والجموع والجيوش التي تشد ملكه على قول ابن عباس رضي الله عنهما ، أو هي التي كان يُعذب بها الناس ويشدهم بها إلى أن يموتوا، تجبُرًا منه وعُتوًا، وهكذا فعل بامرأته آسية وماشطة ابنته، وقيل : كانت له صخرة تُرفع بالبكرات، ثم يُؤخذ الإنسان فتوتد له أوتاد الحديد، ثم يُرسل تلك الصخرة عليه فتشدخه .

وأيًا ما كان، فقد كان طاغيًا مُفسدًا في الأرض، ورغم ذلك قال عن نبيّ الله موسى عليه السلام : ﴿ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ (٢٦) ﴾ [غافر : ٢٦] ولم يكتف بذلك، بل حشد الجموع للإجهاز عليه ومن آمن معه ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) ﴾ [الشعراء : ٦٠ – ٦٢] وما كاد نبيّ الله موسى يقولها إلاَّ

وأُمر ﴿أَنِ اضْرِب بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ(٦٣)﴾ [الشعراء: ٦٣].

وإذا كان فرعون قد ادَّعى يومًا أنَّ الأنهار تجري من تحته، فإنَّ الله بقدرته أجراها من فوق رأسه جزاءً وفاقًا ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (٤٦)﴾ [فصلت: ٤٦].

ثم إنَّ فرعون عندما أدركه الغرق قال: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)﴾ [يونس: ٩٠] فقيل له: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس ٩١].

فالعبد تُقبل توبته ما لم يُغرغر، وما لم تتردد الروح في الحلقوم، وهلك فرعون مع الهالكين، وبقي عبرة للمعتبرين ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ أي يرصد عمل كل إنسان حتَّى يُجازيه به.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنَّ على جهنم سبع قناطر، يُسأل الإنسان عند أول قنطرة عن الإيمان، فإن جاء به تامًا جاز إلى القنطرة الثانية، ثم يُسأل عن الصلاة فإن جاء بها

جاز إلى الثالثة، ثم يُسأل عن الزكاة، فإن جاء بها جاز إلى الرابعة، ثم يُسأل عن صيام شهر رمضان فإن جاء به جاز إلى الخامسة، ثم يُسأل عن الحج والعمرة فإن جاء بهما جاز إلى السادسة، ثم يُسأل عن صلة الرحم فإن جاء بها جاز إلى السابعة، ثم يُسأل عن المظالم، وينادي منادٍ ألا من كانت له مظلمة فليأت، فيُقتص للناس منه، ويُقتص له من الناس، فذلك قوله عزَّ وجل: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾.

إنَّ الله تعالى يسمع أقوال الخلق ونجواهم ويعلم أعمالهم وأسرارهم فيُجازي كلاً بعمله، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ** ﴿١٤﴾ ﴾ [العلق: ١٤] ولما قيل للبعض: أين ربك؟ فقال: بالمرصاد.

وقرأ البعض سورة الفجر عند المنصور، حتَّى بلغ هذه الآية: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ فقال: يا أبا جعفر، فهذا وعيد للجبابرة، وكأنه أراد أن يدق الظلمة بإنكاره، ويقمع أهل الأهواء والبدع باحتجاجه، فقبل أن تُقدم، اعلم أنَّ الله مُجازيك بقبيح فعلك، وقد يعاجلك بالانتقام منك، قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ**

عزيزٌ ذُو انتقامٍ ﴿٤﴾ ﴾ [آل عمران: ٤١]، وقال سبحانه: ﴿ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال: ﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٧]، وقال: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الروم: ٤٧]، وقال: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [السجدة ٢٢]، وقال لنبيه ﷺ: ﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الزخرف: ٤١].

وقال عن فرعون وقومه: ﴿ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الزخرف: ٥٥، ٥٦]، وقال: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الدخان: ١٦].

والمنتقم هو الذي يقصم ظهور العتاة، ويُنكل بالجناة، ويُشدد العقاب على الطغاة، وذلك بعد الإعذار والإنذار، وبعد التمكن والإمهال، والخلق يدورون في الدنيا والآخرة، بين فضل وعدل، فمن دخل الجنة فهو المحمول على فضل

الله، ومن هلك في الدنيا وعُذِّب في الآخرة، فهو المحمول على عدل الله.

﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ قيل: إذا انتقمت ممن هو دونك، فلا تأمن أن ينتقم منك من هو فوقك، وإذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك.

فيا أيها الظالم في فعله – والظلم مردود على من ظلم – تذكر ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ (١٦) ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ (١٧) كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ (١٨)** ﴾ [المرسلات: ١٦ – ١٨].

حدد النَّبيّ ﷺ مصارع القوم يوم بدر، فهذا مصرع أبي جهل، وهذا مصرع عُتبة، وهذا مصرع شيبة بن ربيعة... فما تجاوزوا الأماكن التي حددها رسول الله ﷺ، وجعل يُناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «**يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنَّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقًا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقًا؟**» فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفس محمد**

بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» [رواه البخاري]، قال قتادة: أحياهم الله حتَّى أسمعهم قوله، توبيخًا وتصغيرًا ونقمة وحسرة وندمًا.

عباد الله، أين الجبارون؟! وأين ما قصدوا؟! وأين أرباب المعاصي على ماذا وردوا ؟! أين قوم نوح وعاد وثمود وقرونًا بين ذلك كثيرًا، سارت بهم الأيام والليالي سيرًا حثيثًا إلى ربهم وقدمت بهم على أعمالهم ، ﴿**هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا** (٩٨)﴾ [مريم: ٩٨].

إذا رأيتم من تطاول على عباد الله، وكفر بالله، وادعى القوة والجبروت، وأنه لا أشد منه، فقولوا له: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ**﴾، ففعله بقوم عاد هو فعله بك، إن لم ترتدع عن بغيك وظلمك وتتوب إلى ربك، لقد قُتل صاحب يس ظُلمًا وعدوانًا، فهان الكفرة على ربهم، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ** (٢٨) **إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ** (٢٩)﴾

[يس: ٢٨، ٢٩].

ودخلت امرأة النار في هرة حبستها، لا هي أطعمتها إذْ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، وعقرت ثمود الناقة تعدياً لحدود الله، فاستحقوا الهلاك، قال تعالى: ﴿ **فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (١٤) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا(١٥)** ﴾ [الشمس: ١٤، ١٥]، فكيف بمن قتل شيوخًا رُكَّع، وبهائم رُتَّع وأطفالاً رضّع، وروَّع البلاد والعباد ببطشه وطغيانه، قولوا له: ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾، قال تعالى: ﴿ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩)** ﴾ [الأعراف: ٩٧ – ٩٩] وقال: ﴿ **فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ** ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

أيها الظالم تنام عيناك، والمظلوم منتبه يدعو عليك، وعين الله لم تنم، كيف تكون نجاتك لو رُفعت الدعوات دون الغمام؟!، وقال سبحانه: «**وعزّتي وجلالي لأجيبنَّك ولو بعد حين**».

أين من ملكوا المشارق والمغارب؟!، أين بختنصر والنمروذ؟! فاعتبر أيها المغرور بالعمر المديد والحصن والقوة والبأس والملك المشيّد ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ .

إنَّ قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، فأين هو الآن؟!، قال تعالى : ﴿ **فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ** ﴾ [القصص : ٨١]، وأين فرعون وآله؟! ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ(٤٦)** ﴾ [غافر : ٤٦].

اللحود بيوتنا بعد الترف واللين، والقيامة تجمعنا وتنصب الموازين ﴿ **إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ** ﴾ [الأنعام : ١٣٤] وكأن قد عاينت ما فعلت في الكتاب مسطوراً، وعلمت أنك كنت في الهوى مغروراً، ويا لها من آية لو نُقشت على قلبك لاستقام قولك وفعلك آية واحدة تكفيك ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ** ﴾ .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

لكل نبأ مستقر

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فالنصر عقبى الصابرين، والعاقبة للمتقين، وإنّ الله لا يصلح عمل المفسدين، ولا يضيع سبحانه أجر المحسنين، والناظر سيجد تدبير الكفرة تدميرهم، وكيدهم يرتد إلى نحورهم، وعلى الباغي تدور الدوائر، ومن سلَّ سيف البغي قُتل به، ومن حفر بئراً لأخيه سقط فيه.

وهي السنن لا تعرف المحاباة ﴿ **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً** (٦٢) ﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ومن نظر في صفحات الكتاب المسطور والكون المنظور علم أنَّ لكل حق حقيقة، ولكل أجل كتاب، وأنَّ الظلم ظلمات، ولا يحيق المكر السيئ إلاَّ بأهله، وأنَّ الفرج مع الكرب، وأنَّ مع العسر يسراً، ﴿ **وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً** (٤٣) ﴾ [فاطر: ٤٣].

والمتأمل سيجد في كل شيء له آية تدل على أنّه الواحد، وأنَّ لكل خبر يخبره الله تعالى وقتًا أو مكانًا يحصل فيه من غير خُلف ولا تأخير، ولكل وعد ووعيد من الله تعالى استقرار، ولابد وأن يعلم العباد أنَّ الأمر كما أخبر الله تعالى عنه عند ظهوره ونزوله.

﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ﴾ أي لكل خبر حقيقة، ولكل شيء وقت يقع فيه من غير تقدّم وتأخّر، وقيل: أي لكل عمل جزاء، وقيل: هذا وعيد من الله تعالى للكفار؛ لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث.

ويجوز أن يكون وعيداً بما ينزل بهم في الدنيا، وقد استقر يوم بدر ما كان يعدهم به من العذاب، قال تعالى: ﴿ وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٦، ٦٧].

وتكذيب المشركين إمَّا راجع إلى العذاب، وهو لابد وأن ينزل بهم، أو إلى القرآن وهو الحق في كونه كتابًا مُنزَّلاً من عند الله، أو يعود إلى تصريف الآيات وهو الحق؛ لأنهم كذبوا كون هذه الأشياء دلالات.

ومعنى ﴿لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾، أي لست عليكم بحافظ حتَّى أجازيكم على تكذيبكم وإعراضكم، إنما أنا منذر، والله المجازي لكم بأعمالكم.

﴿لِّكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تهديد ووعيد ويجوز أن يكون المراد منه عذاب الآخرة، ويجوز أن يكون المراد منه استيلاء المسلمين على الكفار بالحرب والقتل والقهر في الدنيا.

ورغم مرور أكثر من ألف وأربعمائة عام على بعثة رسول الله ﷺ فما زلنا في مواجهة التكذيب والإعراض، بحاجة لأن نُردد قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، فالخطاب وإن توجه لرسول الله ﷺ إلاَّ أنَّ الأمة تدخل في التكليف تبعًا لنبيها ﷺ، طالما لم يرد دليل يخصص الحكم به صلوات الله وسلامه عليه، والوعظ والتذكير الذي توجّه يومًا، يصلح لنا وعظًا وتذكيرًا، والأمور كلها على ما عند الله.

قد نُخطئ العد والحساب، وقد ينظر البعض تحت قدمه، ولا قدرة عنده في النظر في عواقب الأمور، وقد يكون فريق

أعشى البصر أو البصيرة، وتظل المعاني الإيمانية سالمة عن كل معارضة، نصدق شرع الله، ونكذب التجارب والنظريات والخبرات، بل ونكذب الدنيا بأسرها إن هي صادمت الكتاب والسُّنَّة، ولسان حالنا ومقالنا ينطق: آمنت بالله وكذبت عيني.

ولذلك نُقسم بالله أنَّ ما بعد الدنيا من دار إلاَّ الجنة أو النار، وأن الموت نهاية كل حيّ، والكل سيُعاني الموت وسكرته، والقبر وضمّته والصراط وحدّته، والناس بين آخذ كتابه بيمينه، وبين آخذ كتابه بشماله، وغداً ينكشف الغطاء ويتبين لمن كانت بضاعته النفاق أن ما حصله كان سرابًا، وأنَّ القبر إما روضة من رياض الجنة وإمَّا حفرة من حفر النيران، فريق في الجنة وفريق في السعير.

وكل ما ورد في الكتاب والسُّنَّة لابد وأن يتحقق ويقع كما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه، فالمسألة مسألة وقت، والوعد والوعيد كما أخبر القدير سبحانه ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** (٨٢) ﴾ [يس: ٨٢]، ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** (٦٤) ﴾ [مريم: ٦٤].

لقد أخبر النَّبيُّ ﷺ أمته عن طاعون عمواس، وحدث ذلك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس، كما قال الحافظ ابن حجر، وقال: «**اعدد ستاً بين يدي الساعة**» فذكر منها فتح بيت المقدس» [رواه البخاري] وقد تم ذلك في عهد عمر رضي الله عنه سنة ست عشرة من الهجرة، وبنى بها مسجداً في قبلة بيت المقدس.

وقال تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ۝١﴾ [القمر: ١]، قال ابن مسعود رضي الله عنه: انشقّ القمر على عهد رسول الله ﷺ بشقّين، فقال رسول الله ﷺ: «**اشهدوا، اشهدوا**» [رواه مسلم].

وقد اتفق العلماء أنَّ القمر قد انشق في عهد رسول الله ﷺ، وأنَّ انشقاقه إحدى معجزات رسول الله ﷺ، ودليل من دلائل نبوّته.

وقد أخبر ﷺ عن استفاضة المال والاستغناء عن الصدقة، وقال: «**ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب، ثم لا يجد أحداً يأخذها منه**» [رواه

مسلم] ، وقد كثر المال في عهد الصحابة ﷺ بسبب ما وقع من الفتوح، ثم فاض المال في عهد عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – فكان الرجل يعرض المال للصدقة فلا يجد من يقبله.

وفي الحديث: «**لا تقوم الساعة حتَّى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى**» [رواه البخاري ومسلم]، وقد كان خروجها سنة (٦٥٤هـ)، ووصفها ابن كثير وأبو شامة والنووي وغيرهم.

وورد «**ألا إنَّ الفتنة ههنا، ألاَّ إنَّ الفتنة ههنا ، من حيث يطلع قرن الشيطان**» [رواه الشيخان] ، فمن العراق وما والاها ظهر الخوارج، والشيعة، والباطنية، والقدرية، والجهمية، والمعتزلة، والمانوية، والمزدكية، والهندوسية، والبوذية، والقاديانية، والبهائية، والإلحاد، وسيكون ظهور الدجال ويأجوج ومأجوج من جهة المشرق، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وقد أخبر الصادق المصدوق عن فتنة مقتل عثمان ﷺ،

وكان عمر ﷺ بمثابة باب كُسر على الفتنة، وقال ﷺ: «**كيف بإحداكن إذا نبحتها كلاب الحوأب**» [رواه أحمد والبزار والحاكم]، فلما بلغت أم المؤمنين عائشة ﷺ بعض ديار بني عامر نبحت عليها الكلاب فقالت: «أي ماء هذا؟» قالوا: الحوأب، قالت: «ما أظنني إلاَّ راجعة»، وساقت الحديث.

كما أشار النَّبيُّ ﷺ إلى موقعة صفين بقوله: «**لا تقوم الساعة حتَّى تقتتل فئتان عظيمتان من المسلمين، يكون بينهما مقتلة عظيمة دعواهما واحدة**» [رواه البخاري ومسلم] فالفئتان هما طائفة عليٍّ ومن معه، وطائفة معاوية ومن معه، على ما ذكر الحافظ ابن حجر.

ومن ذلك تقليد الأمم الماضية، واتباع طريقتهم، فعن أبي هريرة ﷺ عن النَّبيّ ﷺ، قال: «**لا تقوم الساعة حتَّى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر، وذراعاً بذراع**» فقيل: يا رسول الله، كفارس والروم؟ فقال: «**ومن الناس إلاَّ أولئك**» [رواه البخاري].

وفي رواية عن أبي سعيد: «قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟، قال: «**فمن**» [رواه البخاري ومسلم]، وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ، فقد وقع ما أخبر به ﷺ كما قال النوويّ.

وقد أخبر الصادق المصدوق عن توقف الجزية والخراج، ومن ظهور مُدّعي النبوة، ففي الحديث: «**لا تقوم الساعة حتَّى يُبعث دجّالون كذّابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنَّه رسول**» [رواه البخاري ومسلم].

وممن ادَّعى النبوّة مُسيلمة الكذّاب، والأسود العنسي، والمختار بن أبي عبيد الثقفي، والحارث الكذاب، وظهر في العصر الحديث: ميرزا أحمد القادياني، ومن هؤلاء الكذابين أربع نسوة ادّعين النبوّة، منهم سجاح زوج مسيلمة الكذاب، وتنبأ طليحة بن خويلد الأسدي، ثم تاب ورجع إلى الإسلام، وحسُن إسلامه، ولا يزال خروج هؤلاء الكذابين واحداً بعد الآخر، حتَّى يظهر آخرهم الأعور الدجال.

ومن جملة الأخبار انتشار الأمن، فقد قال النَّبيُّ ﷺ

لعديّ: «**فإن طالت بك حياة لترينّ الظعينة** (المرأة) **ترتحل من الحيرة تطوف بالكعبة لا تخاف إلاَّ الله**» [رواه البخاري] وقد تحقق ذلك في زمن الصحابة ﷺ وسيكون ذلك أيضًا – بإذن الله – في زمن المهدي وعيسى عليه السلام.

وعن سهل بن سعد أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**سيكون في آخر الزمان خسف وقذف ومسخ، إذا ظهرت المعازف والقينات** (المغنيات) **واستُحلت الخمر**» [رواه الترمذي والطبراني وهو صحيح]، وفي الحديث: «**لا تقوم الساعة حتَّى تكثر الزلازل**» [رواه البخاري].

وقد حدثت خسوفات كثيرة وضربتنا الزلازل، وهي نذير بين يدي عذاب شديد، وتخويف من الله لعباده، وعقوبة لأهل البدع والمعاصي، كي يعتبر الناس ويرجعوا إلى ربهم، ويعلموا أنَّ الساعة قد أزفت وأنه لا ملجأ من الله إلاَّ إليه.

ومن ذلك تداعي الأمم علينا، وكثرة التجارة، حتَّى تعين المرأة زوجها على التجارة وشهادة الزور وكتمان شهادة الحق

وظهور القلم، وتسليم الخاصة، وهو أن يُسلم الرجل على الرجل لا يسلم عليه إلاَّ للمعرفة، وانتفاخ الأهلة، وأن يُرى الهلال لليلة فيُقال لليلتين، وكثرة الكذب، وظهور الكاسيات العاريات والجلادين الظلمة، وانتشار الزنا، والربا، وشرب الخمر، وقتال الترك والعجم، وكثرة المطر، وقلّة النبات، وتطاول الناس بالبنيان ، وضياع الأمانة، وارتفاع الأسافل، وإسناد الأمر لغير أهله، وذهاب الصالحين، وقبض العلم وظهور الجهول، وإخراج الأرض كنوزها المخبوءة، وظهور المعازف واستحلال ذلك، وتقارب الأسواق والزمان، وكثرة القتل، وظهور الشرك في هذه الأمة، وظهور الفحش وقطيعة الرحم، وسوء الجوار، وتشبب المشيخة، فالبعض يصنع بلحيته كهيئة حواصل الحمام، يحلق عوارضه، ويترك ما على ذقنه من الشعر، ثم يصبغه بالسواد، فيغدو كحواصل الحمام .

ومن ذلك كثرة الشح، وصدق رؤيا المؤمن، وكثرة موت الفجأة، وتمني الموت من شدة البلاء، وكثرة النساء، وقلّة

الرجال، وتكليم السباع والجماد الإنس... وغير ذلك كثير من الأخبار الصادقة التي وقعت وتحققت

ومما يجعلك تقطع أنَّ لكل نبأ مستقر ما أخبر عنه الصادق المصدوق مما لم تشاهده بعد كحسر الفرات عن جبل من ذهب، وكثرة الروم وقتالهم للمسلمين، وفتح القسطنطينية، وعودة جزيرة العرب مروجًا وأنهارًا، ودروس الإسلام ورفع القرآن، وخروج القحطاني، وقتال اليهود، وخراب المدينة، وظهور المهدي والدجال ويأجوج ومأجوج، ونزول المسيح، وبعث الريح الطيبة لقبض أرواح المؤمنين، كل ذلك سيحدث وفق خبره صلوات الله وسلامه عليه، وما عليك إلاَّ أن تترك الواقع يُفسر لك هذه الأمارات وهذه العلامات، فلكل خبر حقيقة، ولكل شيء وقت يقع فيه.

فمن تعجّل شيئًا من ذلك، قيل له: فماذا أعددت لها؟ وهذا هو القدر النافع المفيد؛ فقد أتى أعرابيّ لرسول الله ﷺ يسأله بصوت جهوري، ويقول: يا محمد، متى الساعة؟ فأجابه النَّبي ﷺ بنحو من صوته، وقال: «**هاؤم، إنَّ الساعة لآتية فماذا أعددت لها؟**».

فالعتب على من يتيقن أنَّ وعد الله حق، ثم هو لم يستعد للقاء الله، ولم يُحسن المسير إلى الله، ولم يُطبق شرع الله في حياته الخاصة والعامة، وهذا الحال يُقرب للأذهان كيف ستقوم الساعة، ولا أحد في الأرض يقول الله الله، ولن تقوم الساعة حتَّى تضطرب إليات نساء دوس حول ذي الخلصة (صنم كانت تعبده دوس بتبالة)، وحتى تُعبد اللات والعزّى، ولن تقوم الساعة إلاَّ على شرار الناس، يحدث ذلك رغم معاينة الناس لأمارات الساعة، ورغم أنَّ الغيب يصير شهادة، فنعوذ بالله من الخذلان.

عباد الله، لقد علم الأنبياء والمرسلون أنَّ لكل نبأ مستقر، وقد أُمرنا بالاقتداء بهم ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾ [الأنعام: ٩٠] واستقرت هذه الحقيقة عند الصالحين، ولذلك كان الشموخ والعلو في الحياة وعند الممات، تحقق بذلك أبو بكر وعمر، وخبيب وأنس بن النضر، وحذافة السهمي، ومن قبل صاحب يس وأصحاب الكهف، ومؤمن آل فرعون، وعبد الله الغلام... كلهم تحقق أنَّ لكل نبأ مستقر، إنَّها الطمأنينة الواثقة بالحق، والواثقة

بنهاية الباطل مهما تبجح، الواثقة بأخذ الله للمكذبين في الأجل المرسوم.

وما أحوج أصحاب الدعوة إلى الله في مواجهة التكذيب من قومهم، والجفوة من عشيرتهم، والغربة من أهلهم، والأذى والشدَّة والتعب في أقوامهم، ما أحوجهم إلى هذه الطمأنينة الواثقة التي يسكبها القرآن الكريم في القلوب، فإنَّ لكل نبأ مستقر ينتهي إليه ويستقر عنده، وعندئذ يعلمون ما سيكون، فكلمة الفصل لله، والأمر كله بيد الله، إجمال فيه من التهديد ما يُزلزل القول.

إنَّ الله غالب على أمره، ومُتم نوره ولو كره المشركون، والمستقبل للإسلام بغلبته وظهوره، حتَّى وإن كان واقعكم مُؤلمًا، وأمركم كاليتيم على موائد اللئام، ثقوا أنَّ وعد الله حق، وأنَّ دعوات الأسحار لا تُخطئ، وأن الاستقامة هي أعظم كرامة، ولكل نبأ مستقر، ولتعلمن نبأه بعد حين، وقل عسى أن يكون قريبًا، فلا تيأسوا من روح الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

يدمرون أنفسهم بأنفسهم
ثلاث من كنَّ فيه كنَّ عليه

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فالسُّنن لا تعرف المحاباة ولا المجاملات ﴿**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً**﴾ [الأحزاب: ٦٢]، ﴿**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً**﴾ [فاطر: ٤٣]، والشرع لا يُفرق بين المتساويين ولا يساوي بين المختلفين، وهلكة الماكر والباغي والناكث مسألة وقت، فالزمن جزء من العلاج، ولا يصح أن تهتز الثوابت والمعايير.

قال محمد بن كعب القرظي: « ثلاث خصال من كُنَّ فيه كُنَّ عليه: المكر ﴿**وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ**﴾ [فاطر: ٤٣]، والبغي: ﴿**إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم**﴾ [يونس: ٢٣]، والنكث: ﴿**فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ**﴾ [الفتح: ١٠].

فهذه الخصال من أسباب دمار أهلها، والعلاقة وثيقة بين

الأسباب والمسببات، والمقدمات ونتائجها، أعمالكم عمالكم، قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]، وقال: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧].

وفي الحديث: «**واعمل ما شئت فإنك مجزي به**»، وصحَّ الخبر: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك، فلا يلومن إلاَّ نفسه**» [رواه مسلم].

أتى رجل لأحد العلماء يقول له: إنَّ بني فلان قد تواطأوا عليَّ وصاروا يداً واحدة، فقال: يد الله فوق أيديهم، قال: إنَّ لهم مكراً، قال: ولا يحيق المكر السيئ إلاَّ بأهله. قال: هم فئة كثيرة، فقال له العالم: كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله.

وأنت تشتهي الخلاص من الكافرين والفاجرين، ثق تماماً إنَّ مكرهم وبغيهم ونكثهم سيدمرهم تدميراً، فهم في واقع الأمر وحقيقته يهلكون أنفسهم بأنفسهم قبل أن يصل إليهم سلاحك، وما يعود وبال هذه الخصال السيئة إلاَّ

عليهم أنفسهم دون غيرهم، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤)﴾ [آل عمران: ٥٤]، وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣)﴾ [الأنعام: ١٢٣].

وقصَّ علينا القرآن صورة من مكر ثمود بنبيهم صالح، قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ(٥١)﴾ [النمل: ٥٠، ٥١]، قيل في تفسيرها: وهم لا يشعرون بالملائكة الذين أنزل الله على صالح ليحفظوه من قومه حين دخلوا عليه ليقتلوه، فرموا كل رجل منهم بحجر حتَّى قتلوهم جميعاً وسَلِمَ صالح من مكرهم، وقيل: إنهم مكروا بأن أظهروا سفراً، وخرجوا فاستتروا في غار؛ ليعودوا في الليل، فيقتلوه، فألقى الله صخرة على باب الغار حتَّى سدَّه، وكان هذا مكر الله بهم.

وقد مكر المشركون برسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠)﴾ [الأنفال: ٣٠]، لقد

أنجى الله نبيه ﷺ وخرج سالمًا من بين ظهرانيهم مهاجرًا إلى المدينة، وقتل صناديدهم يوم بدر، كأبي جهل وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأدخل الله عليهم الإسلام يوم فتح مكة، ومات ﷺ يوم مات وهو سيد الأولين والآخرين رفع الله له ذكره وأعلى له أثره، وكذلك مكر المنافقون به، قال تعالى عنهم: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ [فاطر: ١٠].

لقد كان مآل مكرهم الفساد والبطلان، وظهر زيفهم لأولي البصائر والنُّهى، فإنه ما أسر أحد سريرة إلاَّ أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، وما أسر أحد سريرة إلاَّ كساه الله ردائها، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

ومكر يهود برسول الله ﷺ ومحاولتهم قتله، وتآمرهم مع المشركين عليه.. كثير معلوم، فكان أن قتل بعضهم وأجلى آخرين، وظهر أمره ﷺ، وقُرب قيام الساعة يُستنطق الحجر والشجر لأمته ﷺ، فيقول الحجر والشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي تعالَ فاقتله إلاَّ الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود، ويفتح الله لهذه الأمة بيت المقدس.

فاحذر المكر ولا تنبهر بأهله، فعن قيس بن سعد بن عبادة رضي الله عنهما قال: لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**المكر والخديعة في النار**» لكنت من أمكر الناس.

[صححه الألباني].

ولا يخفى عليك أنَّ المكر الذي وصف الله به نفسه على ما يليق بجلاله، ومعناه مجازاته للماكرين بأوليائه ورسله، فيقابل مكرهم السيئ بمكرهم الحسنى، فيكون المكر منهم أقبح شيء، ومنه أحسن شيء؛ لأنه عدل ومجازاة، وكذلك المخادعة منه جزاء على مخادعة رسله وأوليائه، فلا أحسن من تلك المخادعة والمكر، وإذا كان المكر السيئ وباله على صاحبه، فكذلك الأمر بالنسبة للبغي، وهو أسرع الجُرم عقوبة.

قالوا: من سل سيف البغي قُتل به، وعلى الباغي تدور الدوائر، والبغي يصرع أهله؛ فالبغي مصرعه وخيم، ومن حفر بئرًا لأخيه سقط فيها، فاهجروا البغي فإنه منبوذ.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لو بغى جبل على جبل لجعل الله - عزَّ وجل - الباغي منهما دكًا.

وقال أيضًا: تكلم ملك من الملوك كلمة بغي وهو

جالس على سريره فمسخه الله عز وجل، فما يُدرى أيُّ شيء مُسِخَ؟ أذُباب أم غيره؟ إلاَّ أنه ذهب فلم يُرَ.

وقال عبد الله بن معاوية الهاشميّ : « إنَّ عبد المطلب جمع بنيه عند وفاته، وهم يومئذ عشرة وأمرهم ونهاهم، وقال : إيّاكم والبغي؛ فوالله ما خلق الله عزَّ وجل شيئًا أعجل عقوبة من البغي، ولا رأيت أحداً بقى على البغي إلاَّ إخوتكم من بني عبد شمس ».

قال ابن القيم : سبحان الله!، في النفس كبر إبليس، وحسد قابيل، وعتو عاد، وطغيان ثمود، وجرأة نمروذ، واستطالة فرعون، وبغي قارون، وقبح هامان، وهوى بلعام، وحيل أصحاب السبت، وتمرد الوليد، وجهل أبي جهل، وفيها من أخلاق البهائم: حرص الغراب، وشَرَه الكلب، ورعونة الطاووس، ودناءة الجُعل، وعقوق الضب، وحقد الجمل، ووثوب الفهد، وصولة الأسد، وفسق الفأرة، وخبث الحية، وعبث القرد، وجمع النملة، ومكر الثعلب، وخفة الفراش، ونوم الضبع، غير أنَّ الرياضة والمجاهدة تُذهب ذلك.

وقد وردت النصوص تذم البغي بغير الحق قال تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢)﴾ [الشورى: ٤٢]، والبغي هو الاستطالة على الناس، وهو الكبر والظلم والفساد، والعمل بالمعاصي، وهو من الأمور الخمسة التي وردت الشرائع بالنهي عنها، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، ويكفي من بُغيَ عليه وعد الله بنصرته، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠].

وفي الحديث: «**ما من ذنب أجدر أن يُعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يُدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم**»

[رواه أبو داود والترمذي وقال: حسن صحيح].

وورد: «**ليس شيء أُطيع الله فيه أعجل ثوابًا من صلة الرحم، وليس شيء أعجل عِقابًا من البغي وقطيعة**

الرحم، واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع (أي لا شيء فيها)» [رواه البيهقي وصححه الألباني].

وفي الحديث: «**وإن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا حتَّى لا يفجر أحد على أحد ولا يبغي أحد على أحد**» [رواه مسلم].

وانظروا في قصص البغاة قديمًا وحديثًا ستجدون تطابقًا بين صفحات الكون المنظور والكتاب المسطور، فهذا فرعون بغى في الأرض بغير الحق، وادَّعى الربوبية والألوهية، وقال: ﴿**أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ** ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: ٥١]، وحاول اللحاق بنبيِّ الله موسى ومن آمن معه من بني إسرائيل وأتبعهم بجنوده بغيًا وعدوًا، فأطبق عليه البحر وأجراه سبحانه من فوقه جزاءًا وفاقًا، ورآه المصريون جثة منتنة بعد أن كانوا يعبدونه من دون الله ﴿**فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً**﴾ [يونس: ٩٢].

وكذلك حكى القرآن قصة بغي قارون، قال تعالى: ﴿**إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ**﴾ [القصص: ٧٦]، وكان من جملة ما نصحه به الناصحون، أن قالوا له: ﴿**وَلَا**

﴿ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٧٧) ﴾ [القصص: ٧٧] فلم يرفع قارون بذلك رأسًا، فأهلكه سبحانه، وانتقل إليه غير مأسوف عليه ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ ﴾ [القصص: ٨١].

إنَّ بغي الأمم الهالكة على الأنبياء والمرسلين فيه عظة وعبرة لأولي الألباب، فقد أخذهم سبحانه أخذ عزيز مقتدر، وسارت الأيام والليالي بقوم نوح وعاد وثمود وقرونًا بين ذلك كثيرًا، فأسلمتهم إلى ربهم وقدمت بهم على أعمالهم ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨) ﴾ [مريم: ٩٨].

تطاول العماليق قوم عاد وقالوا من أشد منّا قوة، فأرسل سبحانه عليهم ريحًا صرصرًا عاتية ﴿ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ (٨) ﴾ [الحاقة: ٧، ٨].

وخرج صاحب يس يُعبّد قومه لله رب العالمين، فقتلوه وبغوا عليه كما صنعوا مع المرسلين، فهانوا على ربهم، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا

كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) ﴾ [يس : ٢٨ - ٣٠] .

وما قيل في المكر والبغي من تعجيل العقوبة والوبال الذي يعود على صاحبه، يُقال مثله في النكث ونقض العهد والميثاق، يُحكى أن بلعام بن باعوراء، كان مجاب الدعوة، وكان قد أوتي اسم الله الأعظم، الذي إن سُئل به أعطى، وإن دُعيَ به أجاب، فلما قدم نبيّ الله موسى ومن آمن معه، ألحَّ قوم باعوراء عليه حتَّى يدعو على نبيّ الله موسى، ففعل، فتحول لسانه بالدعاء عليه وعلى قومه، وضُرب به مثل السوء، قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ﴾ [الأعراف : ١٧٥، ١٧٦]، وهذا مثل كل من لم يرفع رأسًا بدين الله، وانسلخ من آياته سبحانه، ونقض العهد والميثاق المأخوذ عليه .

وفي عام الحديبية أجحفت قريش برسول الله ﷺ ،

ومنعته هو وأصحابه ﷺ من دخول بيت الله الحرام، واشترط سهيل بن عمرو على النَّبيّ ﷺ أن يكتب باسمك اللهم، وأن يكتب اسمه واسم أبيه، بدلاً من كتابة محمد رسول الله ، وأن يرجع عامه هذا، وأن يرد إلى مكة كل من جاءه مسلمًا منها، في الوقت الذي لا يردون من جاءهم مرتداً من المسلمين... إلى غير ذلك من بنود التعسف.

وعلى الرغم من ذلك كان هذا الصلح فتحًا مبينًا للإسلام وأهله، ونزل بشأنه: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ [الفتح] ، وسعت قريش جاهدة في نقض الصلح الذي أبرمته، ومن قبل كانت المجافاة لمقتضى العقل والفطرة والشريعة المنزلة.

ولما بعث النَّبيّ ﷺ برسالة إلى كسرى فمزّقها، قال النَّبيُّ ﷺ: «**مزَّق الله مُلكه**» [رواه البخاري] وقد كان .

وكان سبب إجلاء بني قينقاع استصراخ مسلمة، تكشف بدنها بسبب يهودي، فقتله مسلم، ثم تمالأ يهود على المسلم، فقتلوه، فثار الحيّان، ونقض يهود للعهود والمواثيق قديمًا وحديثًا معلوم، قال تعالى: ﴿ **وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا**

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ٨] فما عادوا مرة للإفساد إلاَّ وعاد عليهم ربنا بالإهلاك.

إنَّ من نقض العهد يضر نفسه، حتَّى وإن كان مسلمًا كما أنه يجر على نفسه اللعن لقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ﴾ [المائدة: ١٣].

ومن صفات المنافقين أنَّ أحدهم إذا عاهد غدر، ولذلك كان حال هؤلاء الأشقياء ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون في الدنيا والآخرة.

قال الحافظ ابن حجر: كان عاقبة نقض قريش العهد مع خزاعة حلفاء النَّبي ﷺ أن غزاهم المسلمون حتّى فتحوا مكة واضطروا إلى طلب الأمان، وصاروا بعد العزة والقوة في غاية الوهن، إلى أن دخلوا في الإسلام، وأكثرهم لذلك كاره.

وفي الحديث: «**يا معشر المهاجرين خمس خصال إذا ابتليتم بهنّ وأعوذ بالله أن تدركوهن... ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلاَّ سلط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلاَّ جعل الله بأسهم بينهم**» [رواه ابن ماجه والحاكم، وصححه الألباني].

فمن نكث العهد فإنما يجني على نفسه، وإياها يهلك، فنكثه عليه لا له، والبعض قد يضيق لنكث العهد مكراً وبغياً كما قال شداد: إذا رأيت الرجل يعمل بمعصية الله فاعلم أن لها عنده أخوات، وذلك أنَّ المعصية تدل على أختها.

والناظر في فعل الشيوعية العالمية، وما فُعل بها – على سبيل المثال لا الحصر – سيجد شاهداً ونذيراً لهؤلاء الأعداء الذين نقضوا العهد والميثاق مع الخالق والمخلوق، وبغوا في الأرض بغير الحق، ومكروا مكراً كباراً، ولا يسعنا إلاَّ أن نردد معهم قول ربنا: ﴿ **وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ (١٢١) وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٢٢) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)** ﴾ [هود: ١٢١ – ١٢٣].

اللهم دبِّر لنا فإنَّا لا نحسن التدبير، اللهم من أرادنا وأراد المسلمين بسوء فأشغله بنفسه، واجعل كيده في نحره، واجعل تدبيره تدميره يا سميع الدعاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الموالاة والمعاداة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد :

فلم يسلم مفهوم الولاء والبراء – هذا الجانب العقائدي– من هجمات شرسة، وسهام كثيرة أطلقها أعداء الإسلام والمسلمين رجاء إماتة هذه الأمة والقضاء على دينها ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة: ٢١٧] وقد استخدموا في سبيل ذلك كل الوسائل والأساليب، وأعتاها الغزو الفكري لهذه الأمة وركَّزوا على كل القطاعات والفئات، وقد ازدادت ضراوة هذه الحرب حدة ، وكما نجح إبليس لعنه الله في صرف العباد عن واجب الشكر، كذلك نجح أولياؤه في تغيير مفهوم الولاء والبراء عند غالبية المسلمين، والله غالب على أمره ومُتم نوره ولو كره الكافرون.

ونُشاهد هذه الأمة التي تنتسب لدين الله، وهي توالي الشرق تارة، وترتمي في أحضان الغرب تارة أخرى، وتقيم معاهدات الصداقة مع الروس، وجمعيات الصداقة مع الفرنسيين، ويخرج هذا يُنادي بوطنية، وذاك بقوميّة، وأصبحت رايات الفرعونية، والسلام العالمي، والتعايش السلمي، وزمالة الأديان، والشرعية الدولية، والنظام العالمي الواحد... رايات مرفوعة في بلدان المسلمين، وتقطّعت الأواصر والصلات بين المسلمين بسبب الحدود المصطنعة، ولا تكاد الأمة تُحرك ساكنًا تجاه المذابح التي تعقد للمسلمين في البوسنة والصومال وفلسطين والهند وكشمير وروسيا وبورما والعراق.. وكأن الأمر لا يعنيها، وإن استطعنا شيئًا فعلى سبيل الشجب والاستنكار، وأصبح معيار التعامل والتآخي عند الكثيرين هو معيار الوطن والقبيلة والعشيرة واللطف والظُرف والانضمام للحزب حتّى وإن كان شيوعيًا.

قال صاحب كتاب «أهمية الجهاد»: فإنَّ الكفار - قاتلهم الله - لم يقتصروا على راية واحدة يرفعونها

للمسلمين بدل إسلامهم، ولم يقتصروا على خطة واحدة، بل كثرت خططهم وشعاراتهم ورياياتهم، وذلك من باب تكثير السهام على الفريسة، فإن أخطأها الأول أو العاشر لم يُخطئها العشرون أو الثلاثون.

والذي لا تروق له القومية تجذبه شباك الوطنية أو الإنسانية أو زمالة الأديان أو التعايش السلمي أو الإشتراكية وهكذا دواليك، ولا ينجو منها إلاَّ من اعتصم بالكتاب والسُّنَّة. والوطنية هي تقديس الوطن بحيث يصير الحب فيه والبغض لأجله، والقتال من أجله وإنفاق الأموال من أجله حتَّى يغطي على الدين، وحتَّى تحل الرابطة الوطنية محل الرابطة الدينية، فالوطنيون يحبون أبناء وطنهم، وإن كانوا على غير ملَّتهم أكثر من محبَّتهم لمن كانوا على ملَّتهم إذا لم يكونوا في وطنهم، بل قد يصل الأمر بالوطنيين إلى اجتماعهم على محاربة المسلمين مع الكفار؛ لأن الكفار من أبناء وطنهم !! وإذا وصل الحال بالإنسان إلى هذه الدرجة فقد عُبد الوطن من دون الله.

والعصبية للوطن من جنس العصبية للقوم كلها من

دعاوى الجاهلية، والوطنية في العصر الحاضر التي نسمع الدعوة لها في ديار الإسلام، بضاعة مستوردة كغيرها من المستوردات، وما أكثرها، تكتلات كثيرة وروايات عديدة، ومذاهب أرضية ماديّة عفنة أصبحنا نوالي لأجلها، ونُعادي ونُقاتل لأجلها، ونُسالم لأجلها كما صنعنا أيام دعوة القومية العربية، وفي الحديث: «**من قاتل تحت راية عُمّية يغضب لعصبة أو يدعو إلى عصبة أو ينصر عصبة، فقُتل، فقتلته جاهلية**» [رواه مسلم] والعمّية هو الأمر الأعمى الذي لا يستبين وجهه، وقال النبي ﷺ: «**من قاتل لتكون كلمة الله أعلى فهو في سبيل الله**» [رواه مسلم] اهـ.

إن أوجب الواجبات على العباد معرفة التوحيد وما يُنافيه من الشرك، وكما قال صاحب رسالة «الولاء والبراء في الإسلام»: «فإنَّ بعد محبة الله ورسوله تجب محبّة أولياء الله ومعاداة أعدائه، فمن أصول العقيدة الإسلامية أنه يجب على كل مسلم يدين بهذه العقيدة أن يُوالي أهلها، ويُعادي أعداءها، فيحب أهل التوحيد والإخلاص ويواليهم، ويُبغض أهل الإشراك ويُعاديهم، وذلك من ملَّة

إبراهيم والذين معه، الذين أمرنا بالاقتداء بهم، حيث يقول سبحانه وتعالى: ﴿ **قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ** ﴾ [الممتحنة: ٤].

وهو من دين محمد ﷺ قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥١)** ﴾ [المائدة: ٥١]، وهذه في تحريم موالاة أهل الكتاب خصوصًا.

وقال في تحريم موالاة الكفار عمومًا ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ** ﴾ [الممتحنة: ١].

بل لقد حرَّم الله على المؤمن موالاة الكفار، ولو كانوا من أقرب الناس إليه نسبًا، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣)** ﴾ [التوبة: ٢٣]

وقال تعالى: ﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال: وقد جهل كثير من الناس هذا الأصل العظيم، حتَّى لقد سمعت بعض المنتسبين إلى العلم والدعوة في إذاعة عربية يقول عن النصارى إنهم إخواننا، ويا لها من كلمة خطيرة، وكما أنَّ الله سبحانه حرَّم موالاة الكفار أعداء العقيدة الإسلامية، فقد أوجب سبحانه موالاة المؤمنين ومحبَّتهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦) ﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦] وقال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠] في الدين والعقيدة وإن تباعدت أنسابهم وأوطانهم وأزمانهم، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ

﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠] فالمؤمنون من أول الخليقة إلى آخرها مهما تباعدت أوطانهم وامتدت أزمانهم إخوة متحابون يقتدي آخرهم بأولهم ويدعو بعضهم لبعض، ويستغفر بعضهم لبعض» اهـ.

وفي تفسير قوله سبحانه: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧] قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ﴾ يريد يوم القيامة، ﴿بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي أعداء، يُعادي بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا ﴿إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ فإنَّهم أخلَّاء في الدنيا والآخرة، قال معناه ابن عباس ومجاهد وغيرهما.

وحكى النقَّاش: أنَّ هذه الآية نزلت في أُميَّة بن خلف الجُمَحي وعقبة بن مُعيط، كانا خليلين، وكان عقبة يُجالس النَّبي ﷺ، فقالت قريش: قد صبأ عقبة بن أبي معيط، فقال له أُمية: وجهي من وجهك حرام إن لقيت محمدًا، ولم تتفل في وجهه، ففعل عقبة ذلك، فنذر النَّبيُّ ﷺ قتله، فقتله يوم بدر صبرًا (حبس الإنسان للقتل) وقُتل أُمية في المعركة، وفيهما نزلت هذه الآية.

وذكر الثعلبي رحمه الله في هذه الآية قال: كان خليلان مؤمنان وخليلان كافران، فمات أحد المؤمنين، فقال: يا رب، إنَّ فلانًا كان يأمرني بطاعتك، وطاعة رسولك، وكان يأمرني بالخير وينهاني عن الشر، ويُخبرني أني مُلاقيك، يا رب، فلا تُضله بعدي، واهده كما هديتني، وأكرمه كما أكرمتني، فإذا مات خليله المؤمن جمع الله بينهما، فيقول الله تعالى: ليُثنِ كل واحد منكما على صاحبه. فيقول: يا رب، إنه كان يأمرني بطاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالخير وينهاني عن الشر، ويُخبرني أني ملاقيك، فيقول الله تعالى: ونِعْم الصاحب كان.

قال: ويموت أحد الكافرين، فيقول: يا رب، إنَّ فلانًا كان ينهاني عن طاعتك وطاعة رسولك، ويأمرني بالشر، وينهاني عن الخير ويخبرني أني غير ملاقيك، فأسألك يا رب ألاَّ تَهْدِه بعدي ، وأن تُضله كما أضللتني، وأن تهينه كما أهنتني، فإذا مات خليله الكافر، قال الله تعالى لهما: ليُثْنِ كل واحدٍ منكما على صاحبه، فيقول: يا رب، إنه كان يأمرني بمعصيتك ومعصية رسولك، ويأمرني بالشرِّ

وينهاني عن الخير ويُخبرني أني غير ملاقيك، فأسألك أن تُضاعف عليه العذاب، فيقول الله تعالى: بئس الصاحب والأخ والخليل كنت، فيلعن كل واحد منهما صاحبه.

قلت - أي القرطبي - : والآية عامة في كل مؤمن ومتق وكافر ومُضل. اهـ.

وأنا أذكر لك بحول الله وقوّته أموراً عامة مُجملة ومختصرة تتعلق بمفهوم الولاء والبراء؛ حتَّى تستبين حجم الغربة ومدى الطغيان المادي المعاصر الذي طرأ على هذا الأصل حتَّى صار ليس لله فيه نصيب.

فمن مظاهر موالاة الكفار:

[١] **التَّشبه بهم في الملبس والكلام وغيرها** لقول النَّبي ﷺ: «**من تشبَّه بقوم فهو منهم**» [رواه أحمد وأبو داود].

[٢] **الإقامة في بلادهم وعدم الانتقال منها إلى بلاد المسلمين**، إذا كان يقدر على الهجرة فراراً بدينه؛ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ**

تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠) ﴾ [النساء: ٩٧ - ١٠٠] فلم يعذر الله في الإقامة في بلاد الكفار إلاَّ المستضعفين الذين لا يستطيعون الهجرة، وكذلك من كان في إقامته مصلحة دينية كالدعوة إلى الله ونشر الإسلام في بلادهم.

[٣] **السفر إلى بلادهم لغرض النزهة ومتعة النفس**، أما لو سافر لضرورة العلاج أو التجارة أو التعلم للتخصصات النافعة التي لا يمكن الحصول عليها إلاَّ بالسفر إليهم؛ فيجوز بقدر الحاجة، وإذا انتهت الحاجة، وجب الرجوع إلى بلاد المسلمين ولابدَّ أن يكون مُظهراً لدينه، مُبتعداً عن مواطن الشرِّ، وكذلك يشرع السفر إلى بلادهم إذا كان لأجل الدعوة إلى الله.

[٤] **إعانتهم ومناصرتهم على المسلمين ومدحهم**، والذب عنهم، وهذه ردة عن الإسلام.

[٥] **الاستعانة بهم والثقة بهم**، وتوليتهم المناصب التي فيها أسرار المسلمين، واتخاذهم بطانة ومستشارين؛ وذلك لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**﴾ [آل عمران: ١١٨] ومن ذلك قول النبي ﷺ للرجل الذي أراد أن يخرج معه في القتال: «**ارجع فلن أستعين بمشرك**» [رواه مسلم]، وكان ذلك يوم بدر، واعترض عمر على أبي موسى الأشعري لما ولَّى كاتبًا نصرانيًا.

[٦] **التأريخ بتاريخهم**، وترك التاريخ الهجري الذي ارتبطت به الأحكام التكليفية، وهذا من جملة التَّشبه بهم، وفيه إحياء لشعائرهم، وإضاعة لأحكام المسلمين.

[٧] **مشاركتهم في أعيادهم** أو مساعدتهم في إقامتها أو تهنئتهم بمناسبتها أو حضور إقامتها؛ أعيادهم من أعظم شعائر دينهم الباطل وهم ودوا لو بذلوا الأموال في سبيل مشاركة المسلمين لهم في أعيادهم، وفي

تفسير قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢] قال عمر وغيره: هي أعياد المشركين، ولأن السخطة تتنزل عليهم.

[٨] **مدحهم والإشادة بما هم عليه من المدنية والحضارة** والإعجاب بأخلاقهم ومهاراتهم، دون النظر إلى عقائدهم الباطلة ودينهم الفاسد، وهذا لا يمنعنا من أن نأخذ العلوم النافعة من كل من أفلح فيها، ولنعلم أنَّ ما هم عليه ليس بحضارة؛ لأن الحضارة هي التي تقوم على أساس إقامة العبودية لله في الأرض، والكفارَ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون.

[٩] **التَّسمي بأسمائهم** وهجران الأسماء الإسلامية.

[١٠] **الاستغفار لهم والتَّرحم عليهم**، وذلك لقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] وليكن معلوماً أنَّ هذه المظاهر بعضها أشد حرمة من بعض.

ومن مظاهر موالاة المؤمنين:

[١] الهجرة إلى بلاد المسلمين، وهجر بلاد الكفر.

[٢] مناصرة المسلمين ومعاونتهم بالنفس والمال واللسان فيما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم.

[٣] التألم لألمهم والسرور بسرورهم.

[٤] النصح لهم ومحبَّة الخير لهم، وعدم غشهم وخديعتهم.

[٥] احترامهم وتوقيرهم، وعدم تنقصهم وعيبهم .

[٦] أن يكون معهم في حال العسر واليسر والشدة والرخاء.

[٧] زيارتهم ومحبَّة الالتقاء بهم والاجتماع معهم.

[٨] احترام حقوقهم.

[٩] الرفق بضعفائهم .

[١٠] الدعاء لهم والاستغفار لهم.

ودلائل هذه المظاهر كثيرة في كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ.

ثم من الناس من يُحب محبة خالصة لا معاداة فيها، وهم المؤمنون الخُلَّص من الأنبياء والصديقين والشهداء، ومنهم من يُحب من وجه، ويُبغض من وجه، وهم عصاة

المؤمنين، ومنهم من يُبغض ويُعادى بغضًا ومعاداة خالصين لا محبة ولا موالاة معها، وهم الكفار والمشركين والمنافقين والمرتدين والملحدين على اختلاف أجناسهم، فهؤلاء لا محبة ولا أخوة ولا صداقة ولا مودَّة ولا موالاة بيننا وبينهم. وإن جاز لنا عيادتهم في مرضهم ورحمتهم بالرحمة العامة: كإطعامهم من جوع وسقياهم من عطش ومداواتهم من مرض، إلاَّ لو كان حربيًا، ويجوز التزوج من الكتابية، وأكل ذبائح أهل الكتاب إذا ذبحوا ذبحًا شرعيًا، كما تجوز هديتهم والبيع والشراء معهم، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، والعدل واجب حتى مع الكافر، وبهذا المعنى وذاك وردت نصوص الشريعة.

ولابد من الانتباه إلى أن الإنسان إذا تزوج من كتابية لا يجوز له أن يُحب ما هي عليه من دين باطل حتى وإن عاشرها بالمعروف، وكذلك الرجل يُصاحب والديه بالمعروف دون محبة ما هم عليه من شرك، وأما قوله تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ**﴾

[الممتحنة : ٨] ففيها الأمر بالبر، والبرُّ شيء والمودّة شيء آخر؛ ولذلك فالرحم الكافرة توصل من المال ونحوه، مع بغضنا لما هي عليه من كفر وعدم مودتنا لها.

ولو نظرت نظرة سريعة لنفسك وللدنيا من حولك مع استصحابك لما ذكرناه في قضية مفهوم الولاء والبراء يهولك حجم الضياع، ومدى الهوَّة المادية التي انحدرنا فيها شرًا وفسادًا، مصداق قوله سبحانه: ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾

[الأنفال : ٧٣].

قال الحافظ ابن كثير: «ومعنى قوله: ﴿ **إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ** ﴾ أي إن لم تجانبوا المشركين وتوالوا المؤمنين، وقعت فتنة في الناس وهو التباس الأمر، واختلاط المؤمنين بالكافرين، فيقع بين الناس فساد منتشر عريض طويل» اهـ.

وهذا ما حصل في هذا الزمان، والله المستعان .